مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية ثقافية تصدر سنوياً مؤقتاً

السنة الأولى - العدد الأول

1395 - 1394 - 1393

1985 - 1984

تصدر عن كلية الدعوة الإسلامية

طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

خصائص الاستشراق في مرحلته الثالثة

الدكتور : محمد الدسوقي

إن الدارس لتاريخ الاستشراق يلاحظ أنه بدأ أولى خطواته في رعاية الكنيسة ، وأن الجيل الأول من المستشرقين كان من الرهبان والقساوسة ، وما زال بعضهم حتى الآن من رجال اللاهوت وأن روح التعصب والأفكار الكنيسية والنظرة إلى الإسلام نظرة غير موضوعية قادت الفكر الاستشراقي عبر تاريخه الطويل حتى العصر الحاضر .

على أن الاستشراق مع هذا مر بعدة مراحل أو فترات تاريخية ويمكن تقسيمها على النحو التالي :

1 ـ المرحلة الأولى : وتبدأ بعد فتح الأندلس ، وازدهار الحياة العلمية فيها ، وكذلك جزر البحر المتوسط ، وجنوب ايطاليا ، وتنتهي هذه المرحلة بانتهاء الحروب الصليبية .

2 ـ المرحلة الثانية : وتبدأ بعد الحروب الصليبية ، وتمتد الى منتصف القرن الثامن عشر الميلادي تقريباً .

3 ـ المرحلة الثالثة : وقد بدأت في منتصف القرن الثامن عشر على وجه التقريب ، واستمرت الى نهاية الحرب العالمية الثانية .

4 ـ المرحلة الرابعة : وبدأت بعد الحرب العالمية الثانية ، وما زالت مستمرة حتى الآن .

وقد روعي في هذا التقسيم تميز كل مرحلة بخصائص معينة ، وإن كان هناك قاسم مشترك بين كل هذه المراحل ، وبخاصة تلك التي بدأت بعد الحروب الصليبية .

لقد كانت المرحلة الأولى للاستشراق بداية تعرف أوربا على الشرق وحضارته ، وبخاصة الشرق الاسلامي ، ولا يفيدنا ما كان قبل بزوغ الإسلام[1] من محاولات الغرب لمعرفة الشرق فهذه المحاولات ما كانت تسعى الى ما يسعى اليه الاستشراق بعد أن عبر المسلمون مضيق جبل طارق وبسطوا نفوذهم على شبه جزيرة اسبانيا ، ومكنوا لدين الله فيها .

أن أوربا التي كانت غارقة في ظلمات الجهل والتخلف سعت لأخذ علوم المسلمين وثقافتهم وكذلك

لمعرفة مناط قوتهم وعوامل مجدهم ، وأسباب وصولهم إلى مراكز القيادة في العالم الذي كان معروفاً حين ذاك[2] .

فالمرحلة الأولى للاستشراق تعد مرحلة التلمذة والأخذ عن المسلمين وأن الكنيسة قد حاولت منع الأوربيين من ذلك دون أن تنجح فيما حاولت .

أما المرحلة الثانية فقد كانت بداية الهجوم الفكري على الإسلام والمسلمين ، والسطو على تراثهم العلمي ، وادعاء أنه فكر أوربي خالص ، إن الاستشراق في مرحلته الثانية حاول أن يثأر مما فعله صلاح الدين بالصليبيين فأخذ يكتب عن الإسلام كتابات كلها افتراء وتشويه ، وتضليل وسخافات وجهالات .

وتعد المرحلة الثالثة من أخطر مراحل الاستشراق ، وقد اتسمت بخصائص متعددة أطمع أن اكشف عنها في هذه الدراسة .

والمرحلة الرابعة امتداد متطور للمرحلة الثالثة ، فلم يعدل الاستشراق في المرحلة الرابعة من أهدافه وغاياته ، وأن عدل من طرائقه ووسائله ، ولذا يمكن القول بأن الاستشراق الآن . هو نفس الاستشراق الذي كان من قبل ، وأنه ليس نشاطاً علمياً خالصاً ، ولا عملاً خالياً من شوائب التعصب ، وبرهان ذلك ما يظهر كل يوم من دراسات،تطفح بالإساءة الى الاسلام والمسلمين، وتشد من أزر الصهيونية العالمية الباغية . لقد أومأت آنفاً الى أن هذه الدراسة للحديث عن أهم خصائص المرحلةالثالثة للاستشراق وهي تعد أخطر مراحله ، لأنه في المرحلتين الأولى والثانية لم يستطع أن يغزو العقلية الاسلامية بما سطره من أباطيل ، وإن كان قد نجح في اختراع الاتهامات ضد الإسلام، والمسلمين، والترويج لها بين الأوربيين فأورثهم بذلك حقداً على هذا الدين وأهله ، وتشويهاً لحقائقه وتاريخه حتى بين كبار المفكرين منهم فمارتن لوثر - وهو من زعماء الإصلاح في عصر النهضة - ينتقد الاسلام انتقاداً لاذعاً في مقدمة الترجمة اللاتينية للقرآن الكريم والتي قام بها روبرت تشستر سنة ١٩٤٣ م ، ويصف نبي الاسلام بما وصفه به الرهبان في العصور الوسطى فهو في نظره رجل لا يتعاطى الا اللذات الشهوانية ، ولا يمثل فضيلة من الفضائل الانسانية[3] .

ولكن الاستشراق في مرحلته الثالثة - اضافة الى استمرارية التشويه للاسلام بين الأوربيين وغيرهم - استطاع أن يقوم بدوره كاملاً في خدمة السياسة الاستعمارية ، وبلبلة الأفكار حول الكثير من قضايا الفكر الاسلامي ، وأن يتعاون القائمون به في كلّ قارات العالم على الاثم والعدوان ومن ثم اتسمت هذه المرحلة بما يلي :

أولاً : تبلور مصطلح الاستشراق ، واستخدم لأول مرة عام 1969 م في قاموس اكسفورد للغة الانجليزية ، وأدرج في قاموس الأكاديمية الفرنسية عام 1838 م ، وأصبح يطلق هذا المصطلح على كل فروع العلم التي تهتم بدراسة الشعوب الشرقية من جميع جوانبها بما لها من ديانات ولغات وعلوم وآداب وفنون . . . الخ .

ويقصد بالعالم الشرقي أجزاء العالم المصنفة حسب التصنيف الأوربي ، والتي تضم كل الشعوب التي تقع

شرق قارةأوربا،والتي قسمتها النظرية الأوربية ثلاثة أقسام : الشرق الأدنى ، والشرق الأوسط ـ والشرق الأقصى . .[4] .

ويلاحظ أن ذلك المصطلح وفق النظرية الأوربية يسوي بين ديانات وعادات العالم الشرقي ولا يكاد يفرق بين العقيدة الاسلامية والديانة البوذية ، وهذا خطأ علمي نجمت عنه إساءة بالغة للإسلام وحضارته .

ثانياً : توطدت العلاقة بين الاستشراق والاستعمار ، بل أن الاستشراق أصبح الطريق العلمي لاحتلال الشعوب الاسلامية ، وأصبح المستشرقون بوجه عام موظفين في دوائر ـ الاستخبارات في وزارتي الخارجية والمستعمرات ، وكانوا مستشارين لدولهم فيما يتعلق بمواقفها السياسية والحربية من الدول الاسلامية ، وقام بعضهم بأدوار التجسس تحت ستار مزيف من الاسلام أو البحث الأكاديمي ، ومنهم من دخل مكة والمدينة باسم ذلك الستار[5] كذلك المستشرق الهولندي الذي يدعى « شرود » فقد تظاهر بالاسلام وذهب الى مكة والمدينة في القرن التاسع عشر ، وكان جاسوساً يعمل ضد تركيا .

ومنهم من كان يعد لمهمة التجسس بطريقة تنفي كل الشبهات حوله كهذا المستشرق الذي حدثني عنه الدكتور طه حسين قال :

إن مستشرقاً فرنسياً جاء الى مصر ومعه زوجته وأسلم والتحق بالأزهر وادعى أنه كفيف ، وكانت زوجتي تعطف عليه ، وتتألم لحاله ، وقد زارني كثيراً وتبين بعد ذلك أن هذا ـ المستشرق ليس كفيفاً ، وأنه في سبيل القيام بوظيفة التجسس كاملة ، وحتى لا ينكشف أمره أجريت له عملية جراحية بدأ بعدها وكأنه كفيف لا يبصر ، وقد رحل هذا المستشرق من مصر دون أن يحقق ما جاء هو وزوجته من أجله[6] .

أن العلاقة بين الاستشراق والاستعمار من الحقائق التاريخية التي لا ريب فيها[7] ، لقد مهد الاستشراق للاستعمار ، وكان عوناً له في رسم سياسته واتخاذ مواقفه حتى الآن فالمستر ايدن رئيس الوزراء البريطاني الأسبق لم يكن ليضع قراراً سياسياً في شئون الشرق الأوسط قبل أن يجتمع بأساتذة من المستشرقين في جامعة اكسفورد ، وكلية العلوم الشرقية[8] . وما كان يفعله ايدن كان يفعله غيره من القادة السياسيين في أوربا وأمريكا وروسيا ، وما يزالون يفعلون . . . .

إن ما ذكرته عن هذه العلاقة لا يعدو إشارة مجملة اليها وتفصيل القول فيها يحتاج الى دراسة مستقلة ، بيد أني مع هذا أود الحديث في ايجاز عن دور الاستشراق في حملة نابليون على مصر ، وحملة كانيفا على ليبيا ، ففي كلا الحملتين كان للفكر الاستشراقي دور بارز في القضاء على كل مقاومة للاحتلال ، فقد سبقتهما دراسات استشراقية بينت العقبات التي ستواجه الجيوش الغازية ، ومن ثم وضعت الخطط العسكرية والسياسية وفق ما جاء في تلك ـ الدراسات من معلومات ، وكان من بينها ما أصدره بونابرت وكانيفا من منشورات باللغة العربية زعما فيها أنهما يرغبان في نصرة الاسلام وحماية المسلمين من ظلم المماليك والعثمانين وأسرف نابليون فيما وجهه

الى الشعب المصري فادعى أنه مسلم حقيقي ، وأنه قضى على البابا الذي كان يحض النصارى على محاربة المسلمين ، وقد ورد في منشور نابليون الذي أعده المستشرقون والذي صدر يوم 6 يوليو 1798 ما يلي :

بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله لا ولد له ـ ، ولا شريك له في ملكه . هكذا يبدأ المنشور بنفي قاطع للتثليث ، ولكن كيف تعامل الاستشراق مع هذا الموقف الذي اتخذه نابليون ؟ لقد تعامل معه بالتزييف نحو قرنين من الزمان ، فقد صدر في باريس 1979 م . كتاب بعنوان « مذكرات أحد أعيان القاهرة خلال الحملة الفرنسية 1798 - 1801 م ، وهو عبارة عن ترجمة لفصول من كتاب عجائب الآثار للجبرتي ، ولكن المترجم يحذف الجملة التي ينفي فيها بونابرت التثليث ، وهكذا يخون الاستشراق الأمانة العلمية في الربع الأخير من القرن العشرين . وقد زال التعصب الديني من أوربا كما يقولون فما بالك بمن سبقه ممن عاشوا في عصور الظلام والتعصب . . . ثم يقول ، بونابرت في منشوره :

يا أيها المصريون : قد قيل لكم بأنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد ازالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه ، وقولوا للمفترين أنني ما قدمت اليكم الا لأخلص حقكم من يد الظالمين ، وأنني أكثر من المماليك عبادة لله سبحانه وتعالى . . . أحترم نبيه والقرآن العظيم . أن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون ، واثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبرى (روما الحالية) وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائمًا يحث النصارى على محاربة المسلمين ، ثم قصدوا جزيرة مالطة ، وطردوا منها « الكوالرية » الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين .

ويطلب بونابرت بعد ذلك من المصريين ألا يحاربوا مع المماليك ، وعليهم أن يلوذوا بمساكنهم ، وستثبت الأحداث والأيام أن الفرنسيين عون لهم ، على التخلص مما هم فيه من جور وفساد[9] .

وخاب ظن نابليون ، فلم يصدق الشعب المصري بمنشوره ، وثار ضد الغزاة ، فما كان من هذا الذي زعم أنه مسلم لا يشرك بربه أحداً الا أن أحرق القرى بأهلها ، وحول الأزهر الى اسطبل لخيوله ، ولكن جنوده خرجوا من مصر مدحورين بعد نحو ثلاث سنوات من اعلان ذلك المنشور .

أما كانيفا فقد وزع في الخامس من اكتوبر 1911 م بعد أن استولى على القلعة الحمراء في طرابلس منشوراً على الشعب الليبي جاء فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على كافة المرسلين صلى الله عليهم وسلم اجمعين .

ويلاحظ أن كانيفا لم يبدأ منشوره بنفي التثليث كما فعل بونابرت، والسبب في ذلك ليس تعلقاً بالكاثوليكية ، وانما هو مراعاة للفاتيكان الذي مكن من تحقيق التغلغل الاقتصادي الايطالي في ليبيا بما ساهم به من استثمارات مالية من خلال فرعي بنك روما في طرابلس وبنغازي . ومثلما فعل بونابرت أوضح « كانيفا » لأهل البلاد أين تكمن مصالحهم الحقيقية ، وكشف لهم أعداءهم وكأنهم لا يعرفونهم . . ثم لجأ الى القرآن الكريم ليبرهن على أنه مبعوث العناية الالهية وأن طاعته واجبة :

« فيا سكان طرابلس ، وبرقة .. اذكروا أن الله قال في كتابه العزيز » ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم أن الله يحب المقسطين ﴾ .

ثم بعد الاستشهاد خمس مرات بالآيات القرآنية خلص كانيفا « الى القول بأن » ارادة الله ومشيئته سبحانه وتعالى قضتا أن تحتل ايطاليا هذه البلاد ، لأنه لا يجري في ملكه الا ما يريد ، فهو مالك الملك ، وهو على كل شيء قدير ، فمن أراد أن يظهر في الكون غير ما أظهره مالك الملك رب العالمين المنفرد بتصرفاته ، بملكه الذي لا شريك له فيه فقد جمع الجهل بأنواعه ، وكان من الممترين .

وبناء عليه ، يلزم كل مؤمن أن يرضى ويسلم بما تعلقت به الإرادة الربانية وأبرزته القدرة الالهية ، فالملك له سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء .

وإذا أوجد من لا يحترم أو يثور على العناية الالهية التي أرسلت ايطاليا الى هذه البلاد وباسمها صدرت لي هذه الأوامر ، وقبلتها ممن يملك حق الأمر فسيكون الانتقام منه عظيمًا ، وسأحافظ على تنفيذها بالقوة الموكلة لعهدتي .

وعلى الرغم من هذا التهديد ، والوعيد الذي ختم به كانيفا منشوره هجم المجاهدون الليبيون بعد ثمانية عشر يوماً من اذاعة هذا المنشور على القوات الغازية ، واشتبكوا ، معها في معركة رهيبة دارت رحاها في منطقة الهاني التي تبعد عن أسوار مدينة طرابلس ثلاث كيلومترات ، وانهزمت القوات الايطالية شر هزيمة ، غير أن هزيمة المستشرقين الذين أعدوا المنشور كانت أشد مما جعل رد فعلهم أعنف[10] .

وهكذا يبدو جلياً أن المستشرقين من القرن الثامن عشر الى القرن العشرين كانوا أهم وسائل الاحتلال ، أنهم درسوا الشعوب الاسلامية دراسة شاملة ليقدموا للقادة العسكريين كل أسباب النصر على هذه الشعوب ، وهم في سبيل ذلك لا يقيمون وزناً للموضوعية والامانة العلمية .

ثالثاً :ـ وإذا كان المستشرقون في المرحلة الثانية قد عكفوا على دراسة الشرق دون تنظيم أو تعاون وتنسيق بينهم فهو نشاط فردي غالباً وإن كان للكنيسة دورها في التوجيه العام لهذا النشاط فانهم في المرحلة الثالثة أخذوا يعملون على جمع شملهم وتنسيق جهدهم ، وتجلى هذا في المؤتمر الاستشراقي الدولي الذي عقد لأول مرة في باريس 1873 م . وكان بعد ذلك يعقد كل سنة ثم كل سنتين ، ثم كل ثلاث سنوات على الأغلب أو أربع في بعض الأحيان[11] .

وفي هذه اللقاءات التي كانت تضم ممثلين عن كل المستشرقين في مختلف البلدان ، وأيضاً بعض الأساتذة العرب كانت تلقى الأبحاث والدراسات التي تدور حول الشرق ـ وبخاصة الاسلامي ـ وتاريخه ، وتراثه العقائدي والفكري ، وما كانت بوجه عام تعرض لوسائل النهوض به والحرص على تقدمه واستقلاله .

رابعاً : وكان من وسائل التنظيم والتنسيق انشاء الجمعيات الاستشراقية في مختلف البلدان هذه الجمعيات كانت تدعو الى عقد المؤتمرات الاستشراقية ، وتضع لها جداول أعمالها .

وكان الفرنسيون أسبق من غيرهم في هذا ، ففي عام 1787 م أنشأوا جمعية للمستشرقين الحقوها بأخرى عام 1820 م .

وفي لندن تألفت جمعية لتشجيع الدراسات الشرقية في عام 1823 م . وقبل الملك أن يكون ولي أمرها .

وفي عـام 1842 م . أنشأ الأمريكيون جمعية باسم الجمعية الشرقية الأمريكية . .

وقامت جمعيات أخرى في دول متعددة ، وكانت كل هذه الجمعيات بالاضافة الى اشرافها على المؤتمرات الاستشراقية تبذل جهوداً جبارة في دراسة الشرق ولغاته وتاريخه ، ولا سيما اللغة العربية والعقلية العربية والثقافة العربية ، وما يتصل بذلك كله من دين وفلسفة ، وعلم ، وأدب لتقدم للحكومات في آخر كل سنة تقريراً لا يضم بين دفتيه الحقائق التي تمليها العدالة ، ويبعثها الواقع ، وإنما ينطوي على سموم من الحقد مع كثير من التزييف والمغالطة .

على أن تأسيس تلك الجمعيات ، من جهة أخرى أدى الى تجمع القوى المتفرقة للدراسات الشرقية ، وازدياد نشاطها واشتداد التنافس بينها[12] ، لتحقيق الأمال الغربية في الهيمنة على الشرق ونهب ثرواته ، واستعمار شعوبه .

خامساً : بدأ ظهور الدوريات التي تعبر عن الفكر الاستشراقي ، وما زال بعض هذه الدوريات يصدر حتى الآن فقد كانت كل جمعية استشراقية تصدر مجلة غالباً بل حاول مستشرقو كل أمة اصدار دورية خاصة بهم .

وأخطر الدوريات التي يصدرها المستشرقون الأمريكيون في الوقت الحاضر هي مجلة العالم الاسلامي ، وطابع هذه المجلة تبشيري سافر ، كما أن للمستشرقين الفرنسيين مجلة شبيهة بمجلة العالم الاسلامي في روحها واتجاهها العدائي التبشيري[13] .

سادساً : ـ لم يكن النشاط الاستشراقي في مرحلته الثانية قد شمل كل دول أوربا بدرجة سواء ، فقد كانت دول غرب أوربا أسبق من سواها في هذا النشاط ، فألمانيا مثلاً لم تكن كفرنسا أو ايطاليا في الاهتمام ، بالدراسات الشرقية .

وفي المرحلة الثالثة دخل ميدان الاستشراق كل دول أوربا ، وتسابق الجميع في هذا الميدان بشتى الأسباب لا انتصاراً للحق ، وإنما حرصاً على الفوز بأكبر قدر من غنائم الشرق .

وفضلاً عن ذلك ظهر في هذه المرحلة الاستشراق الأمريكي ، وهو وإن كان امتداداً ، للاستشراق الانجليزي ، فقد تطلع نحو السيطرة الاستعمارية ، ومنافسة أوربا في هذا المجال وإن لم يتحقق ما سعى اليه الا في القرن العشرين ، ففي الاجتماع السنوي الأول للجمعية الشرقية الأمريكية عام 1843 م . أشار رئيس الجمعية الى أن النشاط الاستشراقي الأمريكي ينبغي أن يقتفي خطوات الاستشراق ، وجاء في تقرير عن النشاط

الاستشراقي الأمريكي أنه عمل ضروري لحماية الأمن القومي[14] .

كذلك ظهر ما يمكن أن يطلق عليه الاستشراق الشرقي ، أي ذلك الاستشراق الذي قامت به دول شرقية لا تدين بالاسلام ، كروسيا ، وقام الاستشراق الروسي بدور كبير في مساعدة ـ الصهيونية للتغلغل في فلسطين وانشاء الوطن اليهودي في قلب الوطن العربي ، ففي عام 1852 م . أنشأت القيصرية الروسية لجنة من المستشرقين والمتخصصين في المسائل العربية كان بينها عناصر يهودية هدفها الأول : تهيئة الوسائل اللازمة لتأسيس بيوت لايواء اليهود المهاجرين الى فلسطين ، وانشاء مستشفيات لمرضاهم تحت اشراف البعثة الروسية التي اتخذت القدس الشريف مركزاً لها بدعوى رعاية الكنائس التابعة لها والنصارى الذين ينتمون الى المذهب الأرثوذكسي الروسي .

وفي عام 1864 م . بعثت روسيا وفداً من أعضاء هذه الجمعية للسفر إلى فلسطين سراً لتهيئة الوسائل اللازمة لاقامة ملاجىء ومصحات ومستشفيات ودور للزوار اليهود الذين يصلون الى القدس لزيارة المبكي في بيت المقدس من جميع أنحاء العالم .

وفي عام 1882م . أصبحت هذه اللجنة جمعية قائمة بذاتها ، واحتفلت في عام ـ 1972 م . بذكرى مرور تسعين عاماً على تأسيسها ، وكان الاحتفال بمركز معهد الدراسات الاستشراقية التابع لأكاديمية العلوم بموسكو في أول مايو ، وألقى المستشرق الروسي س . ل . تيخفسكي كلمة رئيس الجمعية ، ثم قدم للحاضرين التقرير العام عن أعمال الجمعية ونشاطاتها ومنجزاتها التي قامت بها خلال تسعين عاماً ، وجاء في كلمته التي ألقاها : أن جمعية الاستشراق الروسي قد ساهمت مساهمة فعالة في انجاز وتحقيق الوطن القومي اليهودي في فلسطين[15] .

سابعاً : ـ على أن جهد الاستشراق الروسي في خدمة الأطماع الصهيونية لا يعني أن غير هذا الاستشراق كان بمنجاة من التحالف مع تلك الأطماع ، والعمل في سبيل تحقيقها فقد بدأ التحالف الآثم بين اليهود والكنيسة عام 1505 م ففي هذه السنة قدم اليهود مشروعاً الى البابا ، وتضمن هذا المشروع النقاط التالية : ـ

1 ـ احتلال العالم الاسلامي .
2 ـ انتزاع الأرض المقدسة من المسلمين .
3 ـ احتلال اليهود لفلسطين[16] .

ولهذا دخل اليهود ميدان الاستشراق في رعاية الكنيسة ، وقدموا الى الدول الأوربية كل ما عرفوه من المسلمين من مواطن الضعف والقوة ، ومن ثم كانوا عوناً لهذه الدول على احتلال الشعوب الاسلامية ، ونجحوا في تسخير كثير من المستشرقين للأهواء الصهيونية ، ولم يكن وعد بلفور المشئوم في عام 1917 م الا ثمرة من ثمرات التحالف الصهيوني المسيحي الظالم .

ثامناً : ـ قام الاستشراق الى جانب تنظيم نشاطه وتوسيعه عن طريق المؤتمرات ، والجمعيات واصدار

الدوريات والنشرات بتأسيس المراكز والمعاهد والكليات الخاصة بالدراسات الشرقية ، ولا تكاد تخلو عاصمة أوربية أو أمريكية أو روسية من مركز أو معهد استشراقي ، بل أن بعض هذه المراكز والمؤسسات العلمية في ظاهرها أنشئت في كل العواصم العربية تقريباً ، وما زال بعضها يقوم بمهمته التغريبية حتى الآن[17] .

تاسعاً : ـ استمرت في هذه المرحلة ولا سيما في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حركة نقل التراث الاسلامي الى أوربا وغيرها ، وقد ترجم قدر منه الى اللغات الأجنبية ، وكان جل ما ترجم خاصاً بالأدب واللغة والدراسات التاريخية ، كما طبع منه قدر لا بأس به ، وهذا الذي طبع يتناول غالباً ما يتناوله القدر الذي ترجم من قضايا الأدب واللغة والتاريخ[18] .

وقد نظمت المكتبات التي تضم ذلك التراث ، ووضعت لها الفهارس ، وقد نقل بعضها الى اللغة العربية ، كذلك أنشئت المكتبات التي تحتوي على الدراسات الاستشراقية ، وما صدر في العالم الشرقي من مؤلفات ودوريات .

عاشراً : ـ رحل كثير من المستشرقين الى العالم الاسلامي ، وأقام بعضهم في ربوعه مدة وكان منهم كما أشرت سابقاً من يعمل جاسوساً ويزعم أنه مسلم ، ومنهم من رغب في دراسة هذا العالم عن مشاهدة ومعاينة ، ومنهم من كان يقوم بالتبشير ، ومنهم من تولى التدريس في المدارس والجامعات ، كما أن منهم من دخل المجامع العلمية عضواً بها .

حادي عشر : ـ تتلمذ كثير من الطلاب المسلمين على أيدي المستشرقين سواء في داخل ديار الاسلام أو في خارجها ، فقد أومأت آنفاً الى أن بعضهم درس في المدارس والجامعات في بلادنا وهؤلاء الذين درسوا لطلابنا لم يدرسوا لهم الا تشريعاتنا وآدابنا ولغتنا وتاريخنا ، وهم ينظرون الى هذا التراث كله نظرة غير موضوعية ، ففقهنا الاسلامي مستمد من القانون الروماني ، وآدابنا يغلب عليها طابع الهجاء والاستجداء ، وتفتقر الى التعبير الصادق عن المشاعر الانسانية ولغتنا كلاسيكية لا تصلح للحياة العصرية ، أنها لغة معقدة صعبة ، تضيق عن استيعاب العلوم والمبتكرات ، وتاريخنا ملفق مشوه يسوده الافتراء حتى فيما روي من أحاديث عن خاتم الرسل والأنبياء .

وأوفد بعض هؤلاء الطلاب الى الخارج للحصول على مؤهلات جامعية عليا كالماجستير والدكتوراه في العلوم العربية ، وكان المستشرقون ومنهم اليهود يشرفون عليهم ويوجهونهم في أبحاثهم ، وكانوا يفرضون عليهم الموضوعات ، ويأبون أن يدرس الطالب كما يريد ، وكانوا أيضاً لا يسمحون لأي طالب بالخروج على الآراء الاستشراقية[19] بل مهاجمتها أو مناقشتها مناقشة عن زيفها وبطلانها ، وترتب على هذا أن تبنت طائفة من المثقفين المسلمين آراء المستشرقين وأصبحوا حماة لهم يذودون عنها ويدعون اليها ولا سيما في مجال التدريس الجامعي ، مما نجم عنه ما يمكن أن يسمى بالاستشراق العربي ، وهو بلا ريب أخطر من الاستشراق الغربي .

ثاني عشر : ـ وكما تنافست الدول في اقامة المراكز والمعاهد الاستشراقية تنافست كل الجامعات في أوربا وأمريكا في انشاء الأقسام الخاصة بدراسة اللغة العربية والحضارة الاسلامية والعلوم الشرقية وأصبح بحلول عام 1850 م . لكل جامعة رئيسية في هاتين القارتين منهج متكامل في أحد فروع تلك العلوم الاسلامية والشرقية[20] .

ثالث عشر : ـ عكف المستشرقون في هذه المرحلة على دراسة الاسلام والمسلمين قديماً وحديثاً ولم يدعوا جانباً من جوانب ثقافتنا الا وكتبوا فيه ونشروا عنه ، وهم الى هذا أكثروا من ترجمة القرآن الكريم وبعض مجامع السنة ، كما أنهم عملوا الفهارس المتنوعة للمصدر الأول والثاني للتشريع في الاسلام ، وأصدروا الموسوعات الخاصة بتاريخنا وتراثنا ، وحاولوا حصر ما خلفه السلف من آثار علمية مبعثرة في شتى المكتبات في كل دول العالم تقريباً .

وقد بلغ ما كتب عن الشرق ـ وكان للاسلام الحظ الأوفر ـ نحو ستين ألف كتاب[21] ، فضلاً عن البحوث والمقالات التي نشرت في الدوريات الاستشراقية ، وغيرها من الصحف والمجلات .

رابع عشر : ـ وكل هذه الكتب والمقالات تدخل في نطاق ما يسمى بالاستشراق الظاهر ، أو الذي يعلن عن نفسه بصورة مباشرة ، وذلك لأن المرحلة الثالثة ، عرفت أيضاً الاستشراق الكامن[22] أو الذي يتوارى في ثنايا الكتب التي ألفت في الأدب والعلوم ، ففي القصة الغربية وآداب الرحلات كان يصور الشرق على نحو خيالي خرافي يظهره بأنه ليس جديراً بالحياة الحرة ، وأن الغرب ينبغي أن يستحوذ عليه ويسوده .

أما الدراسات الفلسفية ، والاجتماعية والقانونية ، وحتى العلمية الخالصة كالطبيعة والفلك فانها كانت تحرص على وضع الشرق والشرقيين في اطار التخلف ، وأنهم دون الغرب قدرة على الابتكار العلمي والتطور الحضاري ، ومن ثم كان على أهل أوربا خاصة أن يبسطوا ارادتهم على هؤلاء المتخلفين .

وكان هذا هو الاستشراق الكامن الذي ظهر في هذه المرحلة . أنه الاستشراق الذي تنبىء عنه فحوى الكلمات ، أو تدل عليه بعض الاشارات ، اذ يأتي عرضاً وكأنه غير مقصود لذاته .

خامس عشر : ـ وكل ما أسلفته عن أهم خصائص المرحلة الثالثة من مراحل الاستشراق يشهد على أن هذا النشاط الاستشراقي كان من وراثه قوى متعددة توجه سياسته ، وتغدق عليه ، وثم كانت هذه المرحلة أخطر مراحل الاستشراق ففيها غزا العقول وبلبل الأفكار وقدم دراسات تناولت كل جوانب ثقافتنا وتاريخنا ، وأراد لنا أن ندرس تراثنا من منظور الفكر الكنسي وكأن الشعور الغربي بالفوقية وأن الشرقي دونه حضارة ، وعلماً أوحى الى المستشرق أنه أخلق من الشرقي بفهم تراثه وثقافته ، وتقديمه له ، فكانت تلك الدراسات المختلفة . التي لم تغادر قضية من قضايا الفكر الاسلامي الا عرضت لها ، وقالت كلمة فيها .

سادس عشر : ـ ولكن ماذا عن آراء الاستشراق في هذه المرحلة ؟
هل تغيرت عن مرحلة العصور الوسطى ، فأصبحت أكثر بعداً عن السخافات والضلالات وأقرب الى

الموضوعية ، والأمانة العلمية ، أو أنه على الرغم من التطور الحضاري ، وعدم الخضوع الكامل لهيمنة الكنيسة . لم تتغير ، وسلكت نفس الدرب الذي سارت فيه في المرحلة الثانية ؟

لا مجال لاستقراء الفكر الاستشراقي في مرحلته الثالثة ، ويكفي الاشارة الى أهم منطلقاته ومفاهيمه العامة فالاسلام لدى جمهور المستشرقين دين بشري ، ومحمد ليس نبياً ـ مرسلاً ، والمسلمون برابرة متوحشون ، وليس لهم دور ابداعي في التاريخ الحضاري ، وعودتهم الى الاعتصام بدينهم يعني عودة الهمجية التي تعوق التقدم ، وتهدد حرية العالم المسيحي ، ومصالح المعسكر الأمبريالي ، فقد جاء في تقرير وزير المستعمرات البريطاني أورسبيغو لرئيس حكومته بتاريخ 9 يناير 1938 م . ما يأتي : ـ

« أن الحرب علمتنا أن الوحدة الاسلامية هي الخطر الأعظم الذي ينبغي على الأمبراطورية أن تحذره وتحاربه ، وليس الأمبراطورية وحدها ، بل فرنسا أيضاً ، ولفرحتنا فقد ذهبت الخلافة ، وأتمنى أن تكون الى غير رجعة[23] .

ويقول المستشرق جوزيف شاخت : كانت حركة الجامعة الاسلامية هي الغول المرعب في ذلك العصر على نفس الطريقة ، وفي نفس الزمن اللذين انتشر الرعب فيهما من « الخطر الأصفر » فكانت كل ظاهرة مناهضة للأمبريالية ، حتى ولو كان مبعثها مشاعر محلية خالصة تعزى الى تلك الحركة الاسلامية ، وكانت الكلمة نفسها توحي بالتطلع الاسلامي للسيطرة ، وبأيديولوجية عدوانية ، وبمؤامرة على نطاق عالمي . وبفضل الصحافة والأدب الشعبيين وكتب الأطفال وأخذت هذه النظرة تتسرب الى عقول الجماهير الغفيرة من الأوربيين ولم تخل من تأثير على العلماء أنفسهم ، وخصوصاً حين كانوا ينبرون لتقديم النصح الى أولئك الذين كانوا يوجهون سياسة الحكومات الاستعمارية .

أما أولئك العلماء الذين اهتموا كثيراً بالدراسات المعاصرة ، والذين كانت فكرة الجامعة الاسلامية تشغل اهتمامهم فانها في تحليلاتهم التي كانت تتصف بدرجات متفارقة من الدقة كانوا يميلون لأن يروا فيها حركة رجعية[24] .

وهؤلاء الذين مجدوا العرب والمسلمين ، وأشادوا بما قدموا من عطاء للانسانية كانوا يقومون بدور المخدر الذي يحاول الهاء المريض عن علته بالحديث عن أيام فتوته وقوته دون أن يقدموا له الدواء الناجع لما يعاني منه ، ويحول دون نهضته وتقدمه .

سابع عشر : ـ وكان ضعف العالم الاسلامي وخضوعه للاحتلال المسيحي من العوامل التي ساعدت على تصوير الاسلام في صورة الدين الذي لا يصلح للحياة وأن المسيحية بطبيعتها ملائمة للتقدم ، لأن المستشرقين استغلوا ضعف المسلمين وركود ريحهم ، وحكموا على دينهم من واقعهم ، ورجحوا المسيحية ، عليه لرجحان أهلها في التطور والتقدم . لقد صورت المسيحية على أنها بطبيعتها ملائمة للتقدم ، وقرن الاسلام بالركود الثقافي والتخلف ، وأصبح الهجوم على الاسلام على أشد ما يكون ، وبعثت حجج

العصور ـ الوسطى بعد أن أضيفت اليها زخارف عصرية ، وصورت الجماعات الدينية الاسلامية بصورة خاصة على أنها شبكة من التنظيمات الخطرة يغذيها حقد بربري على الحضارة .[25] فالاستشراق في مرحلته الثالثة كرر نفس الأفكار في مرحلته الثانية ، وزاد على ذلك اتساع نشاطه وكثرة أعماله ودقة تخطيطه ، وتغلغله في حياة الشرق وأفكاره ، وتعاونه الوثيق مع الاستعمار والصهيونية ، ثم استعلاؤه وطغيانه وانحرافه ، وبعده عن الدقة والموضوعية .

ثامن عشر : ـ وإذا كان هناك من المستشرقين الذين يمثلون الاستثناء في الموقف المضاد للفكر الاسلامي أو المتحامل عليه والممتهن لذويه ، وكانوا يتمتعون بقسط وافر من الشجاعة الأدبية ، والأمانة العلمية ،ومنهم من ارتضى الاسلام ديناً فإن صوت هؤلاء الذين احترموا عقولهم ، وصدقوا مع أنفسهم كان أشبه ما يكون بالهمس وسط المكاء والتصدية ، أو الضجيج الهائل فلا يسمعه أحد وإذا سمعه لا يأبه ، أو يركن اليه ، لأن الضجيج الذي ساد جو الاستشراق غطى على مثل تلك الهمسات ، وجعل عامة الناس لا تطمئن اليها ، بل ترى فيها مروقًا من العقيدة الصحيحة الى دين الشرق الملفق ، ومن ثم لم تستطع أن تصد تيار الافتراء أو التشويه ، أو تحدث ثغرة في الجدار السميك الذي أقامه الفكر الاستشراقي بين الاسلام وغير المسلمين .

وفضلاً عن ذلك كان أصحاب هذا الصوت يلقون العنت والاضطهاد ، أو اللوم والعتاب ، في مجتمعهم ، لأنهم تجاوزوا حدوداً ما كان ينبغي عليهم ألا يتجاوزوها[26] لقد كانوا يحاربون في أعمالهم وأرزاقهم ، ويحال بينهم وبين نشر آرائهم ، ولذا كان بعضهم يلوذ بالصمت لكي لا يموت جوعاً ، ومنهم من كان يؤثر الرحيل عن بلده ، عله يجد في موطن آخر الحرية والحياة المطمئنة .

تاسع عشر : ـ أما رد فعل النشاط الاستشراقي بين المثقفين المسلمين فإنه كان متفاوتاً ، حيث أن كثيراً منهم ، وبخاصة أولئك الذين تعلموا في المدارس الرسمية أو الأجنبية أو سافروا لطلب العلم على أيدي المستشرقين في بلادهم ـ هؤلاء بوجه عام رددوا ما قاله الفكر الاستشراقي ، أما إيماناً به ، أو محاولة للظهور بمظهر التجديد ومواكبة العصر في التفكير ، والبحث العلمي ، ولأنه أتيح لهم أن يوجهوا الثقافة والتربية في أوطانهم فقد نقلوا ذلك الفكر بصورة مباشرة أو غير مباشرة الى الجيل الذي قاموا على تثقيفه وتعليمه مما أدى الى غربة عامة المثقفين المسلمين عن دينهم ، وأصبح انتماؤهم اليه مجرد تقليد عاطفي لا يحميه فكر يعي في دقة مبادىء العقيدة التي ينتمي اليها .

ومن المثقفين المسلمين الذين قدر لهم أن يتزودوا في مراحل تعليمهم بفكر اسلامي صحيح من نبه الى خطر الاستشراق ووجوب التصدي له ، وتفنيد أباطيله ، ومنعه مما يريد بنا محذراً من عقدة الخواجة التي دفعت بنا الى التقليد الجاهل ، الذي لا يميز بين ما يجب أن ننقله عن غيرنا أو نتأسى به فيه ، وما لا يجب أن نأخذ به لأنه لا يكفل لنا نهضة مادية ولا نبقى معه أمة معتصمة بدينها ، ومحافظة على أصالتها في القيم والفكر والسلوك .

لقد ظهرت بعض الدراسات التي ناقشت المستشرقين في بعض آرائهم ، كما ظهرت أيضاً بعض الدراسات التي أرخت للاستشراق واعلامه ، ورصد آثاره ، وهناك دراسات أخرى دارت حول ـ الاستشراق على هيئة محاورة أو مناظرة ، فيها يتصر أحد المحاورين للاستشراق معدداً محاسنه ويرد عليه آخر مهاجماً الاستشراق معدداً مثالبه وأخطاره[27] .

وكل هذه الدراسات على تنوعها تؤكد مدى تغلغل الفكر الاستشراقي في حياتنا ، وأنه في أحسن أحواله ليس فكراً منصفاً ولا مستقيماً ، وأنه استعمار فكري ، يمهد للاستعمار العسكري ، أو يعزز سلطانه .

وبعد فتلك أهم خصائص الاستشراق في مرحلته الثالثة ، ومنها يتضح كما ذكرت أنها أخطر مراحل الاستشراق وأنه فيها أساء الى العالم الاسلامي ، أبلغ اساءة ، وأن الجهد الطيب لبعض المستشرقين سواء منهم من آمن بالإسلام ، ومن لم يؤمن به لم يكن له تأثير ذو بال في صد تيار التشويش والتضليل ، أو في تقديم الصورة الصحيحة للاسلام والمسلمين تلك الصورة التي تهزم ما روجت له الأقلام الاستشراقية المناوئة من تصوير الاسلام والمؤمنين تصويراً منفراً ، تجاوز كل حدود الموضوعية والأمانة العلمية .

وإذا كانت المرحلة الرابعة للاستشراق امتداداً متطوراً للمرحلة الثالثة ، وإذا كانت المواقف المعادية والمتربصة بنا ما زالت هي الطابع الأساسي للفكر الاستشراقي اليوم فان هذا يفرض علينا ، حماية لعقيدتنا ، ووجودنا أن نعمل وفق تخطيط علمي مدروس لمناهضة ذلك العدوان والحيلولة بينه وبين ما يريده بنا ، ولا نلقي بالاً لتلك المزاعم التي تردد في بعض المؤلفات والمؤتمرات ، وتحاول أن تضفي على الاستشراق هالة من الاكبار والاجلال ، وأنه يقوم بدور السفارة العلمية بين الشرق والغرب ، بعيداً عن أهواء السياسة ، أو نزعات التعصب الديني . فهذا أسلوب جديد في التضليل ومنهج حديث في الغزو الفكري ، وما لم نكن أيقاظاً لما يبيت لنا ، ويموه به علينا فان العاقبة ستكون ، وخيمة لأنها ستقتل الفكر والوجدان ، وتزحزحنا شيئاً فشيئاً عن أصالتنا ومقومات وجودنا ، فنصبح غرباء عن عقيدتنا ونفقد في هذه الحالة كل شيء ﴿ **ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز** ﴾[28] .

الهوامش

(1) أنظر فلسفة الاستشراق الدكتور أحمد اسمايلوفيتش ص 39 طبعة دار المعارف .

(2) انظر التشريع الاسلامي وأثره في التشريع الغربي الدكتور محمد يوسف موسى ص 107 القاهرة .

(3) انظر تصور أوربا الغربية للحضارة العربية . بقلم السندر بوزاني مجلة الآداب البيروتية العدد 4 - 5 سنة 83 ص 16 وكذلك تراث الاسلام ص 78 .

(4) الاستشراق ماله وما عليه الدكتورة : رشا الصباح ـ جريدة الأنباء الكويتية ، 1982/9/14

(5) أنظر أيام مع طه حسين للكاتب ص 53 المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت .

(6) انظر أيام مع طه حسين للكاتب ص 53 المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت .

(7) انظر الاستشراق للدكتور ادوارد سعيد ترجمة دكتور أبو ديب ص 74 -120 -121 -208 -221 مؤسسة الأبحاث العربية . بيروت .

(8) التبشير والاستشراق للمستشار محمد عزت الطهطاوي ص 43 مجمع البحوث الاسلامية بالقاهرة .

(9) انظر مجلة العربي عدد أغسطس 1981 م . ص 35 ، والجدير بالذكر أن مستشرقاً فرنسياً عاصر حملة نابليون لم يورد هذا المنشور في كتابه « المنتقيات الأدبية العربية الذي صدر عام 1806 خوفاً على نفسه من جراء التذكر بنص يفتخر فيه بونابرت بتدمير البابوية ، ولما سقط نابليون /1815 سارع هذا المستشرق بإعادة طبع كتابه مدرجاً فيه المنشور الذي يدين بونابرت ، ولكنه يدين أيضاً ممارسات المستشرقين اذ أنه من صنعهم (وانظر المصدر السابق) .

(10) انظر مجلة العربي عدد أغسطس 1981 م ص 37 - 38 .

(11) انظر الدراسات العربية والاسلامية في أوربا للدكتور ميشال جحا 278 معهد الإنماء العربي ، بيروت .

(12) انظر فلسفة الاستشراق ص 82 .

(13) انظر مجلة الأزهر المجلد 31 ص 523 .

(14) انظر الاستشراق ص 293 - 294 .

(15) انظر الاستشراق الروسي للأستاذ محمد أسد شهاب مجلة الأمة القطرية العدد 20 .

(16) انظر التبشير والاستشراق ص 107 .

(17) انظر الدراسات العربية والاسلامية من بعض البلاد الأوربيه وهو مجموعة من المحاضرات لخمسة من المستشرقين ألقيت على طلبة دبلوم الدراسات العربية والاسلام عام 1973/72 بجامعة بيروت العربية . ص 25 بيروت .

(18) انظر الدراسات العربية والاسلامية في بعض البلاد الأوربية ص 40 .

(19) انظر السنة ومكانتها من التشريع الاسلامي للدكتور مصطفى السباعي ص 27 مكتبة دار العروبة بالقاهرة .

(20) انظر الاستشراق ص 203 .

(21) المصدر السابق ص 216 .

(22) المصدر السابق ص 213 .

(23) انظر الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري للدكتور محمود زقزوق ص 98 « سلسلة كتاب الأمة » القطرية صفر 1404 هـ .

(24) انظر تراث الاسلام ص 85.

(25) المصدر السابق ص 84 .

(26) انظر التبشير والاستشراق ص 41 .

(27) انظر مجلة الهلال 1942 ص 321 - 327 .

(28) سورة الحج آية 40 .